الجزء الثالث

بين المسئولية والقوة

لا يشعر أنصار «السياسة الواقعية» على الدوام بالاغتراب في عالم ما بعد القطبية الثنائية. فلا تعوزهم الحجج للمطالبة بالاستمرارية: يدفع التدخل الأقوياء أساسًا إلى العمل في بلاد الأكثر ضعفًا، ويجتذب الأقوياء إلى مراعاة نظرائهم، بل وأيضًا إلى تفادي وصاية المنظمات الدولية. ويتحدث البعض عن «التدخل بالوكالة»، لكي يبرزوا بصورة أفضل دور الدول الكبرى التي تستفيد من الإنابة الجبرية من جانب الجماعة الدولية[1]؛ ويروق للبعض تصوير مثل هذه الممارسات بأنها تتم دائمًا وبلا انقطاع باسم المصالح القومية لأولئك الذين يقومون بها[2]؛ ويكشف آخرون أيضًا أن المنظمات الدولية الأكثر كرمًا والأكثر إخلاصًا تحتاج بشدة لقوة الدول الأفضل تجهيزًا لكي تتمكن من تنفيذ المشروعات: ما قيمة الوكالة الدولية للطاقة الذرية من غير القدرات التكنولوجية الأمريكية؟ نحن نعرف أيضًا أن جميع هذه الممارسات تثير أولاً ريبة الضعيف، وبأنه عند إثارتها في مجلس الأمن، فأكثر أعضاء مجلس الأمن جموحًا ينتمون إلى أطراف النظام الدولي، مثل كوبا، واليمن، وزيمبابوي، أو أولئك الباقين من أنصار مبادئ باندونج، مثل الصين أو الهند[3]. وما هو صحيح بالنسبة للتدخل صحيح بنفس القدر بالنسبة لجماعات المسئولية والمنافع المشتركة: غطرسة من جانب الأكثر قوة تجاهها، ومخاوف وريبة من جانب الأكثر ضعفًا أوشعوره بأنها غامضة.

(1) H. Bull, «Introduction», *in.* id. éd., *Intervention in World Politics,* NewYork, Oxford University Press, 1984, p. 2.

(2) S. Krasner, «Sovereignty and Intervention», in G.Lyons et M. Mastanduno éd., *op. cit.,* p. 228-249, en particulier p. 249.

(3) G. Lyons et M. Mastanduno, State Sovereignty and International Intervention», *ibid.,* p. 260-261. Sur ses interventions en général, cf. J. Mayall éd., *The New Interventionism,* Cambridge, Cambridge University Press, 1996.

مع ذلك ليست جميع الأمور بهذه البساطة دائمًا: منذ الوقت الذي تم فيه ابتكار مبدأ المسئولية، لم يغادر المسرح العالمي بعدها ولا يمكنه الاختفاء من بعد، ويقوم الآن بإلزام البيانات والممارسات، وبصياغة المناقشات والمداولات، وبصنع هذا «الاعتماد المعنوي المتبادل[1]» الحتمي، وبإحداث بلا انقطاع فاعلين أكثر عددًا، وأكثر تشعبًا وإنجازًا. وتتكاتف الدول فيما بينها لحماية حالة قائمة تفيدهم، ومع ذلك تتورط أكثر فأكثر في توجيه «ضربات» تقلب بانتظام المعطيات التقليدية للحياة الدولية. لهذا، تمتزج مبادئ السيادة والمسئولية والقوة وتختلط معًا: يمكن للمسئولية، بطريقة غير متوقعة، أن تنعم بمباهج القوة؛ إنها تصطدم بتناقضات تجعلها في بعض الأحيان تبدو متعارضة ومتناقضة ظاهريًا؛ لكن تنتج عنها أيضًا أشكال التنظيم هذه الجديدة والتجريبية والتي بفضلها تصبح هذه المبادئ متفاعلة، ولا يتغلب أي مبدأ من بينها. ومن هذا التفاعل ينشأ نظام دولي جديد مستحدث وبعيد عن الدروب المعروفة.

(1) J. Donnelly, «Sovereignty and International Intervention: the Case of Human Rights», *op. cit.*, p. 145.